

الشريف بوشوشة: زعيم ثورة 1871م في مصر

الجزائر الشرقية

~~~~~ د / محمد بن معمر (\*)

### تقديم:

إن حركة المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي خلال القرن 19م، قد عرفت قائمة طويلة بأسماء لامعة أسفرت عنها الثورات والانتفاضات المتتالية على مدى قرابة قرن من الزمن. وإذا كانت بعض أسماء هذه القائمة قد أخذت إلى حد ما قسطها من البحث والاهتمام كالأمر عبد القادر مثلا، فإن البعض الآخر منها لا يزال مجهولا، يحتاج إلى العناية والاهتمام من خلال البحث والتنقيب في تاريخه وبعثه من جديد. إن الكثيرين لا يزالون أصول وفصول أسماء مثل بوبغلة وبوحمار وبوشوشة وبوعود وغيرهم كثير.

الأقلام التي دونت تاريخ أبطال حركة المقاومة في الجزائر من خلال مشاهدتها ومعاصرتها للأحداث هي الأقلام الفرنسية، فأصبحت وبحكم تلك المعاصرة المصدر الأساسي الذي لا يستغني عنه أي باحث في تاريخ المقاومة. غير أن هذه المصادر ورغم وفرتها تضع المؤرخين والباحثين والأقلام الوطنية أمام تحد كبير لا بد من تجاوزه إذا أرادت أن تعتمد عليها، وهو التشويه السافر والحاقد لحقائق تاريخ المقاومة. إن الواجب يحتم على الباحث الجزائري المراجعة الضرورية لتاريخه الذي شوهته المدرسة الاستعمارية، ووضعت المقاومة وأصحابها في إطارها غير الصحيح.

(\*) أستاذ التاريخ الوسيط بقسم الحضارة الإسلامية وباحث في مخبر البحث التاريخي "مصادر وتراجم" بجامعة وهران.

ولعل في مقاومة الشريف بوشوشة مثل الواضح على هذا التسويه، فارتأيت أن تكون هذه المقالة المتواضعة خطوة نحو إعادة النظر فيما كتبه الفرنسيون عن هذا البطل ومقاومته. ومن أكثر الكتاب الفرنسيين اهتماما بأمر بوشوشة المستشار لوي رين Louis Rinin نائب رئيس الجمعية التاريخية في كتابه "تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر" الصادر بتاريخ 1891 بباريس وهو المصدر الأول فيما يتعلق بثورة بوشوشة من حيث حجم المادة التاريخية. يليه العسكري الفرنسي Le Capitaine le Chatelier في كتابه "Les Medaganat" المدافعات المنشور بالمجلة الإفريقية، في العدد 30 و31 (1886-1887).

إن المادة التاريخية الواردة في المصدرين المذكورين هي عمدتنا في هذه المقالة لأننا لا نملك غيرها، إلا أننا سنحاول قدر المستطاع توخي الحيطة وإعادة قراءتها بغير الشكل الذي جاءت عليه، أي تحويل المقاومة والمقاوم من الإطار الذي وضعته فيه الرواية الاستعمارية إلى الإطار الحقيقي الذي يجب أن توضع فيه مقاومة بوشوشة. لقد وضعت الرواية الفرنسية البطل بوشوشة وحركته في إطار جماعة المدافعات، وهو عنوان كتاب Le Chatelier المصدر الثاني بعد لوي رين، وكلمة المدافعات هذه نسبة إلى مدافن اسم رجل ترقى وردت قصته في الكتاب المذكور<sup>2</sup>. وأول من أطلق هذه التسمية أحد كبار شعابة ورقلة وهو معطى الله بوظفر الذي كان في ضيافة الشعابة المواضي فقدم له زعيمهم بوبكر بن عبد الحكم في جماعة 1867 عنزة مشوية ولكن بدون سمن ولا ملح فقال له بوظفر مازحا: "إنكم تعتدون على من يفعل معكم الخير تسرقون العدو والصديق أنتم مثل الطوارق مدافعات." وبقيت التسمية بعد ذلك علما على الجماعة التي اتخذت من السطو والسلب والنهب والقتل عملا لها في الصحراء حسب Le Chatelier، والتي تكونت في عام 1868 في تديكلت. وفي سبتمبر 1869 غادرت هذه الجماعة حاسي الجمل واتجهت إلى عين صالح تبحث عن بوشوشة الذي كان قد شرع في جمع السائحطين والناقمين حوله كما يقول Le Chatelier.

وهذا الرأي لا ينفرد به Le Chatelier وحده بل إن رين له نفس القناعة وهي قناعة الفرنسيين جميعا في نظرهم للمقاومة، ولا غرابة في أن يستهل رين حديثه عن بوشوشة بحادثة السرقة التي يتهمة بها ويختتم حديثه أيضا بمقدمة لوشاتولييه لكتابه المدافعات، وبما ورد فيها أن

وبعد نهاية الشريف المزعوم وإلقاء القبض عليه عام 1874 كُنت مجموعة من الشعانية  
 الشائرين رفاقه الأوائل عصاة سراق تحت اسم المداققات، وظلوا طوال عشر سنوات (1874-  
 1883) يقطعون الصحراء من واد درعة إلى فزان يسرقون وينهبون ويقتلون بلا استثناء العدو  
 والصديق إلى أن أهلكتهم الصحراء. هكذا أرخت الأقلام الفرنسية لبوشوشة وثورته فهو في نظرها مجرد صعلوك متمرّد على  
 سلطتها، سارق قاطع طريق محرض لأهل الصحراء ضدها، وكل ما قام به في رأيهم لا يخرج  
 عن هذا الإطار. والحقيقة قد نكون ساذجون إذا انتظرنا منهم غير هذا الطرح الغريب الذي  
 جاء في الأساس ليخدم مصلحة فرنسا الاستعمارية. ومن خلال المادة التاريخية المتوفرة لدينا بشأن بوشوشة ووحركته يمكننا تقسيمها إلى  
 مراحل ثلاث:

#### مرحلة الإعداد والتحضير: 1862-1869

كلمة بوشوشة هي الكنية التي عرف واشتهر بها هذا البطل وهي تعني الأشعر أي غزير  
 الشعر أوفره، واسمه الحقيقي محمد بن تومي بن إبراهيم من مواليد الغيشة بجبال عمور في  
 تاريخ لا نعرفه<sup>3</sup> لأن الرواية الفرنسية تعطينا تفاصيل 12 سنة من عمره فقط، أي فترة  
 المقاومة (1862-1874) وتعتمد إغفال ذكر معظم حياته، فنحن لنجمل أصوله وشبابه والمؤثرات  
 والمواهب التي صبغت شخصية هذا البطل. المواقف التي صقلت شخصية هذا البطل. المواقف التي صقلت شخصية هذا البطل.  
 يخبرنا رين أن بوشوشة وفي 1862/12/22 امتثل أمام محكمة معسكر التأديبية التي حكمت  
 عليه بالسجن لأنه سرق، وهي حادثة يستهل بها رين تاريخه لبوشوشة دون توضيح لطبيعة  
 هذه السرقة وهو بذلك يوهننا أن ما سيقوم به بوشوشة لا يخرج عن هذا الإطار، وأن عمله  
 هو مجرد انتقام ممن سجنوه. وبعد خروجه من السجن ببونخفيس عام 1863 اتجه إلى فقيق  
 ومنها إلى توات أين شرع في جمع الأنصار وإعدادهم وتحضيرهم لحركة المقاومة. مع الأسف لا نملك المعلومات التي تساعدنا على معرفة طبيعة مرحلة الإعداد هاته التي  
 استغرقت مدة 6 سنوات فهي مضنية، إذ وبعد هذه الفترة تقول الرواية الفرنسية (رين  
 ولوشاتوليه) أنه ظهر في عين صالح أين بايعه الشعانية المواضي كشريف عام 1869 وراح

يلتف حوله السائحون والناقمون والمدافنات كما يقول Le Chatelier، أي أن نواة الحركة هي مجموعة لصوص حسب رأيه.

لكن الحقيقة التاريخية عكس ذلك تماماً لأن بوشوشة لم يكن إلا واحداً من آلاف الجزائريين الذين ثاروا ضد العدوان طيلة وجوده على أرض الوطن، وانتفضوا انتفاضة الجريح في دينه وكرامته ووطنه. وقد ظهرت منهم طائفة كبيرة اتخذت من عنصر الشرف مرتكزا تعتمد عليه في حمل راية الجهاد ضد العدو لما له من تأثير في أوساط الجزائريين. وكان وراء كل داعية للجهاد طريقة صوفية تدعمه، وقد ظهر هؤلاء منذ أن أخذت قوة الأمير عبد القادر تضعف، فمن الشريف بومعزة إلى الشريف بوعود إلى الشريف بوبغلة، ثم الشريف ابن عبد الله والقائمة طويلة، وسواء كانوا هؤلاء شرفاء حقيقيين أو ادعوا النسب الشريف فإن دعوتهم للجهاد ضد العدو جعلت الأنظار تتجه إليهم باعتبارهم المنقذين الخارقين للعادة، ومحققى آمال الناس في الانعتاق من الاضطهاد وتحرير الدين من الكفار<sup>4</sup>.

لقد كان بوشوشة واحداً من هؤلاء عندما أعلن نفسه شريفاً في عين صالح فبايعه الأتباع، هكذا اقتضت طبيعة المقاومة الجزائرية للعدو خلال ق19، لا بد من رمز شريف يجتمع حوله الأنصار. وكانت الطريقة السنوسية من وراء حركة بوشوشة كما يقول قارو وليس لدينا ما يرد هذا الرأي فهي الطريقة التي ناصبت العدو العداء و حاربه بكل الوسائل، وهي الطريقة التي حركت الشريف محمد بن عبد الله قبله ودعمته بكل ما يحتاج. إن اتخاذ بوشوشة عين صالح مقراً لبدء حركته وإعلان نفسه شريفاً فيها يعود إلى بعدها عن عيون العدو وعدم خضوع أهلها له، فيمكنه التحرك والإعداد دون أي نخوف من الفرنسيين وأعوانهم الذين كانوا يسيطرون على المناطق الصحراوية الواقعة إلى الشمال من عين صالح كالأغواط وورقلة وتقرت.

### مرحلة المقاومة والانتصار: 1870-1872

استهل بوشوشة مقاومته خلال هذه المرحلة باستيلائه على المنيع في أبريل 1870 وسجن القائد جعفر الخاضع لسلطة الفرنسيين، وفي 5 ماي استولى على متليلي، وبعد أسبوع كان في آبار سيسب يشترك مع قائد الأربعاء لخضر بن محمد، ثم عاد بعد ذلك إلى عين صالح القاعدة الأساسية التي ظل يعتصم بها كل ما داهمه خطر العدو.

بعد مدة الحركة الخاطفة التي أسفرت عن أخذ مدينتي المنيعه وميتليبي والتي كانت بمثابة إعلان بوشوشة للثورة على العدو الفرنسي وأعوانه، وكانت أيضا اختبارا لقوته، نجده يقيم في عين صالح مدة عشرة شهور قضاها في جمع الأنصار ومواصلة تأليب الشعابنة وتحريضهم ضد العدو دون أن يقوم بعمل عسكري يذكر من ماي 1870 إلى مارس 1871.

صحيح أن بوشوشة كان منشغلا خلال هذه الفترة بمواصلة الإعداد والتحضير وكسب الأنصار، وهو ما تقتضيه طبيعة المقاومة، فتوقف عن مواجهة العدو وأعوانه، غير أن استقراء الأحداث يوحي بأن الرجل كان ينتظر الفرصة المواتية ليسدد ضربته بعزيمة أكبر وإرادة أقوى، وأنه كان على علم بما يدور من أحداث قشة ظروف وتغيرات قد حصلت خلال هذه الفترة داخليا وخارجيا جاءت كلها في صالح المقاومة والمقاوم وهي:

أ - اندلاع الحرب الفرنسية الألمانية في جويلية 1870، واندحار الجيوش الفرنسية فيها ووقوع نابليون III إمبراطور فرنسا نفسه في الأسر.

ب - الانقلاب الذي قام به اليساريون ضد النظام الإمبراطوري وإعلانهم قيام الجمهورية الثالثة في تاريخ فرنسا في 4-9-1870 ووقوع فرنسا في فوضى وتطاحن بين المدنيين والعسكريين حول الحكم.

ج - صدور القرار الشهير القاضي بتجنيس يهود الجزائر بصفة جماعية بتاريخ 24-10-1870 واستنكار الجزائريين له وتفسيرهم له على أنه خطوة نحو تعميم الجنسية الفرنسية على كل المسلمين الجزائريين.

د - وصول محي الدين ابن الأمير عبد القادر رفقة ابن ناصر بن شهرة إلى نفطة بتونس وكان ذلك في نوفمبر 1870 وأشيع يومها في الجنوب خبر قدوم الجيوش التركية والمصرية لنجدة المسلمين. وفي ديسمبر من نفس العام وجه محي الدين رسائل عديدة إلى رؤساء وأعيان الصحراء يحثهم على الجهاد وكان ممن راسلهم محي الدين الشريف بوشوشة.

هـ - انتفاضة الخناشنة بقيادة الكبلوتي بسوق أهراس في يناير 1871، وأولاد عيادون في الشمال القسنطيني في فبراير، ثم الدمامشة وأولاد عبيد استجابة لنداء محي الدين. كما لاحظت في الأفق بوادر ثورة المقراني والحداد.

وكرر بوشوشة في هذه الفترة زياراته إلى القبائل والبلديات ليعلمهم بالوضع الجديد.

و - النزاع العائلي الذي كان على أشده حول السلطة والنفوذ بين أسرتي بو عكاز وبن قانة صاحبي الجاه والسلطان في الصحراء الشرقية والذي انحصر إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى.

هكذا كانت الأوضاع تسير داخل الجزائر وخارجها وهي أوضاع كان يراقبها بوشوشة عن كثب ويتابع أطوارها وهو في عين صالح. لقد ارتفعت درجة حمى التمرد على حد تعبير الجنرال بيجو في الشمال وجاءت الفرصة لبوشوشة كي يضرب ضربته في الجنوب التي طالما انتظرها.

وبصورة مفاجئة يصل بوشوشة إلى نقوسة في 5 مارس 1871 ويدخل ورقلة بدون مقاومة بعد مفاوضة أهلها وكانت تابعة لأغوية علي باي بن بو عكاز بواسطة خليفته سي نعمان بن ذباح. غير أن رين وكعادته لا يقوته أن يقدم لنا بوشوشة في صورة سفاك للدماء غير حافظ للعهد، فحسب رأيه وإرضاء لفريق من المخادمة أقبل بوشوشة على قطع رؤوس خمسة من نبلاء الميزابيين الذين ذهبوا إلى مفاوضاته قبل دخول ورقلة بعد أن احتجزهم وأخذ منهم فدية 9500 فرنك، وهذا العمل الفظيع يضيف رين قائلاً هو الذي دفع أهل ورقلة إلى الانضمام إلى حركته وأن البعض منهم خصوصاً الشعانية والمخادمة كان هدفهم الاستيلاء على مناجر الميزابيين العامة<sup>5</sup>. هكذا يصر دوماً رين على نعت بوشوشة وأتباعه بالسراق ويجردهم من كل صفة وطنية وأهم كانوا مجرد صعاليك.

وفي 8 ماي اتجه بوشوشة إلى قمار فأنارت حركته مخاوف شيخ الزاوية التيجانية محمد الصغير بن الحاج الذي رفض استقباله وعزم على مقاومته، ولكن بوشوشة طمأنه بأنه يريد مهاجمة زمالة علي باي أغا تقرت عميل الفرنسيين، وهو الأمر الذي لم يوافق عليه السوافة ودفعوا له مبلغاً من المال مقابل رحيله عنهم.

ثم اتجه إلى مويث القائد أين وصلته رسائل من شيوخ وزعماء عرب غراية وسلماية وأولاد رحمان وأولاد مولات ونزلة وبجارية تعرض عليه المساعدة باعتبارهم من صف بن قانة، وطلبوا منه دخول تقرت والقضاء على سلطة علي باي بن بو عكاز ونفذه، فاستغل بوشوشة هذه المساعدة ليدخل مدينة تقرت في 13 ماي والتي مكث بها إلى غاية 21 من نفس

الشهر أين عين قوي بن قوي خليفة له وأغا على تقرت وأوصاه بأن يحكم المدينة بالشرعية الإسلامية كما طلب من أهلها مساعدة الخليفة الجديد.

في ظرف شهرين استطاع بوشوشة أن يفتك من العدو وأعوانه قاعدتين هامتين هما ورقلة وتقرت مستغلا التناحر العائلي بين أسرتي بن قانة وبوعكار الذي استخدمه المستعمر في فرض نفوذه على المنطقة. وأراد بوشوشة أن يجمع إلى هذا الانتصار العسكري بسيطرته على ورقلة وتقرت تأييد الزاوية التيجانية لما لها من تأثير في نفوس أتباعها الكثيرين فأنجه إلى تماسين مقر الزاوية ولكن عبثا حاول ذلك فقد رفض الشيخ سي محمد العيد استقباله قائلا: "إنه بمشيئة الله دخل الفرنسيون إلى الجزائر وأن حكومتهم دائمة فاحترس". ولم يصل إلى نتيجة فقد ظل شيخ الزاوية متمسكا بعباده المعارض لبوشوشة الذي رحل متوجها إلى بلدة عمر ومنها واصل سيره إلى عين صالح قاعدته الإستراتيجية لجمع الأنصار وتدبير الخطط.

أما علي باي فإنه لما علم بما أصاب حاميته بعد أن سيطر على المدينة بوشوشة اتجه إلى بسكرة يوم 27 ماي واحتج لدى القائد الفرنسي ضد أولاد بن قانة وحملهم مسؤولية التآمر مع بوشوشة ومساعدته على دخول ورقلة وتقرت. وأمام توبيخ القائد الفرنسي له وإقامه بالإهمال والتقصير وتوعده بالمحاكمة عقد العزم على استرجاع نفوذه الضائع، فأنجه إلى تقرت التي حاصرها يوم 8 جويلية يساعده أولاد عمر وأولاد بن زكري وأولاد نابل وفشل في اقتحامها بعد معركة خسر فيها الطرفان عددا كبيرا من القتلى. وفي 10 من نفس الشهر وصل بوشوشة رفقة ابن ناصر بن شهرة وحرت معركة ثانية بين الطرفين انتهت بهزيمة علي باي وانسحابه إلى بسكرة يوم 13 جويلية.

بعد هزيمة علي باي وخلال شهري جويلية وأوت جرت ثلاث معارك بين بوشوشة وأولاد زكري أتباع علي باي الذين ساعدوه على محاصرة تقرت، وكانت سجالات بين الطرفين إذ فقد بوشوشة عددا من أنصاره وبعض مواشيه وجماله.

حسب لوي رين فإن ما أصاب بوشوشة في حربه مع أولاد زكري كان سببا في ترزعزع هيئته ونفوذه، ويدلل على ذلك بأن السوافة وهم أهل الرقم وكوينين وتاغزوت والذين سبق وأن أعطوه مبلغا من المال مقابل رحيله عنهم في 8 ماي، استغلوا فرصة تقهقره أمام أولاد زكري وطلبوه بإرجاع المبلغ المالي عندما طلب منهم التوسط في عملية بيع كمية من

البارود، لأن تجارة الأسلحة والذخيرة قد عرفت نشاطا كبيرا خلال هذه الفترة في مالطة وتونس بواسطة اليهود والمالطيين في موانئ صفاقس وسوسة ونابل وغيرها، والتي كانت تجد طريقها إلى الجزائر عبر نقطة ثم وادي سوف.

ورغم صدور أوامر رئيس التحالف اليهودي في تونس بمنع بيع هذه الأسلحة من طرف اليهود إلا أن هذه التجارة ظلت متواصلة. كما أصدر رئيس زاوية ثماسين أوامره إلى أتباعه من سواقة قمار والواد وديلة بالامتناع عن بيع الأسلحة وهم من صف بوعكاز. بينما نجد أتباع الصف الثاني صف بن قانة وهم سواقة كوينين وناغزوت والرقم أتباع الطريقة الرحمانية يزدادون نشاطا في تجارة الأسلحة فحدثت مشادة بين الطرفين لم يتدخل بوشوشة في أمرها وهو ما فسره زين مرة أخرى بأنه دليل على ضعف بوشوشة وتقهره.

بعد هذه الأحداث ترك بوشوشة صديقه بن ناصر بن شهرة خليفة له على تقرت واتجه إلى نوميرات جنوب العطف بميزاب التي حل بها في 31 أوت 1871 رفقة المحادمة وشعانية بوروبة أين التقى به السي الزبير ولد سي بوبكر ولد سيدي الشيخ مع فريق من الشعانية المواضي وشعانية برزقة.

حسب زين فإن سي الزبير الذي كان سبق وأن تولى آغوية ورقلة ما بين 1854-1861 وتخلّى عنها لأسباب صحية، حاول الاتصال بالفرنسيين مقابل إعطائه الأمان وتعيينه آغا على ورقلة، ولكن بعد تفكير طويل آثر أن يوطد علاقته مع بوشوشة رغبة في الأموال الكثيرة التي كانت بحوزة بوشوشة وتمحض اللقاء عن مصاهرة جديدة بين الطرفين، إذ أصبحت فاطمة بنت جلول حفيدة سيدي الشيخ زوجة لبوشوشة. وهذا التحالف الطبيعي بين رموز المقاومة يريد زين دوما أن يشكك في دوافعه ويترع عنه روجه الدينية الوطنية، ففي رأيه أن تحالف سي الزبير مع بوشوشة كان رغبة في الأموال وآغوية ورقلة التي حصل عليها من بوشوشة.

في أول سبتمبر 1871 تزوج بوشوشة من فاطمة بنت جلول وفي الرابع منه كان محبها بمدخل واحات بني يزقن ينتظر رد الميزابين الذين أرسل إليهم يطلب منهم الخضوع والمبايعه ودفع الإتاوات كبرهان على ذلك.

لكن الميزابيين رفضوا طلب الشريف بشدة وصمموا على مقاومته ورده إذا فكر في مهاجمتهم لأسباب ذكرها رين وهي الدفاع عن ممتلكاتهم، والانتقام لإخوانهم الخمسة الذين قتلهم بوشوشة عندما دخل ورقلة، والحفاظ على مذهبهم الديني باعتبار أن الإباضية لا تؤمن بسيادة الشرفاء من ذرية النبي وهو ما يدعيه بوشوشة في نظرهم. هذه هي الأسباب التي حذت بالميزابيين إلى إعلائهم الحرب المقدسة ضد الشريف والتي رفعوا خلالها شعارات مختلفة كلها تدعو إلى الجهاد وتحرض عليه ضد الشريف المزعوم المشوش والمنحرف الضال كما جاء في مقطع من الرسالة التي قرئت على الميزابيين وهو المقطع الذي ذكره رين موضحاً به تلك الشعارات بشكل واسع<sup>7</sup>.

ولكن ثمة سبب آخر أكبر من هذه الأسباب تغافل عنه رين حتى يظهر لنا الشريف بأنه مرفوض وغير مرغوب فيه وأنه لا يمثل الجهاد الحقيقي. هذا السبب الذي دفع الميزابيين إلى اتخاذ هذا الموقف هو الاتفاق الذي وقع بينهم وبين الفرنسيين في 29 أبريل سنة 1853 والذي رضوا بموجبه بدفع ضريبة سنوية للفرنسيين قدرها 45000 فرنك والاعتراف بحمايتهم. وتعهدت فرنسا على لسان راندون مقابل ذلك بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأهل ميزاب وأن تحميهم في المدن والتل نظراً لمصالحهم التجارية الحيوية شريطة أن يتعهدوا من جهتهم بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين<sup>8</sup>.

ومع ذلك فإن الشريف لم يلح في الطلب على الميزابيين فقد اكتفى بأن قال لهم: "أمهلكم مدة شهر وثلاثة أيام للتفكير وإلا سأحاربكم" وتركهم ليتدبروا أمرهم ورحل عنهم يوم 6 سبتمبر، ولكن رين كعادته لا يفوته أن يذكرنا بطبيعة بوشوشة وما يقوم به من سطو حسب رأيه، فبعد رحيله عن الميزابيين أثر ألا يعود إلى ورقلة فارغ اليدين فكلف فرقة من أتباعه بالاتجاه نحو تاجرونة غرب الأغواط للإغارة، وكلف فرقة ثانية بالاتجاه إلى شبكة شمال ميزاب أين أغارت على قطعان مدينة غرداية وبريان، واحتفظ هو بفرقة ثالثة صحبة سي الزبير ومكث ينتظر عند واد زلفانة عودة الفرقة الأولى والثانية اللتين وافتا به 17 قطع من الغنم.

ولدى وصوله إلى ورقلة التي رحبت بالأغا الجديد سي الزبير وجد في استقباله ابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله الذي جاء رفقة زعماء أولاد خليفة وحمامة ليقدموا له

التحبة والتهاني على نجاحه. هكذا اجتمعت رموز المقاومة وقياداتها في الصحراء الشرقية يترجمها الشريف بوشوشة الذي ما فتئت الأقلام الفرنسية تنعته بقاطع الطرق، لقد جمع حوله الشرفاء من هذه الأمة الذين آثروا الموت على أن يعيشوا تحت علم فرنسا.

لقد مرت عشرون سنة على مقاومة ابن شهرة ونفس المدة مرت على مقاومة الشريف بن عبد الله دون يأس ولا كلل، فمنذ 1851 دخلا في صراع مع العدو ثم جاء بوشوشة ليواصل هذه الجذوة المتقدة فحدث التحالف بين الزعماء الأربعة؛ ابن شهرة، ابن عبد الله، سي الزبير، يرأسهم بوشوشة. ولكن هذا التحالف جاء متأخرا، فالعدو قد استعاد عافيته بعد حربه مع ألمانيا وأن الجيوش التي شاركت في هذه الحرب بإمكانها العودة إلى الجزائر، وأن أعوانه في الداخل لا زالوا يمدونه بما يحتاج في سبيل إجهاض أي مقاومة.

لقد انتهى شهر سبتمبر وتلاه أكتوبر 1871 دون أن يقوم بوشوشة بأي عمل عسكري حاسم، لقد عرف وادي ريغ خلال هذه الأيام هدوءا نسبيا أوعزه رين إلى انشغال بوشوشة وابن شهرة وسي الزبير بمحاولة استمالة قبيلة سعيد عتبة من جهة وانتظارهم تطور الأحداث من جهة ثانية. وهو الوضع الذي اعتبره رين فرصة هامة ساعدت على قدوم القوات الفرنسية من الشمال إلى الصحراء، فقد غادر الجنرال دولاكروا Delacroix المسيلة في 3 نوفمبر باتجاه الصحراء.

وفي 7 نوفمبر وقعت معركة بين الشريف بوشوشة والقائد بولخراس بن فانة -أخ محمد الصغير بن فانة قائد بسكرة- وقبيلة السعيد عتبة التي أفضعها بولخراس بالثورة ضد الشريف فقد فيها 50 قتيلًا وأصيب هو بجروح خطيرة وذلك بكويف جبلة بين قرارة والعالية. واثرت هذه المعركة اتجه الشريف إلى جنوب ورقلة إلى حاسي القطار للعلاج ومنه إلى حاسي بوروية أين استراح من 30 نوفمبر إلى 17 ديسمبر 1871.

أما الجنرال Delacroix الذي كان قادما من المسيلة فقد وصل إلى بسكرة يوم 8 ديسمبر والتي غادرها يوم 14 باتجاه تقرت التي احتلها من جديد يوم 27 ديسمبر بعد تحرير دام 8 أشهر (من ماي إلى ديسمبر). وفي 28 ديسمبر كلف الجنرال Delacroix قائده روس الخبير بشؤون الصحراء بالاتجاه صوب ورقلة فاحتلها يوم 2 جانفي 1872 بعد تحرير دام عشرة أشهر (من مارس إلى جانفي).

هكذا أعاد العدو احتلال مدينتي واد ريغ تقرت وورقلة، وقد أدرك أهميتها الإستراتيجية في صحراء الجزائر الشرقية والخطورة التي شكلتها ثورة الشريف من خلال السيطرة عليهما، فقد جعل منهما بوشوشة قاعدتين هامتين ينطلق منهما في كل الاتجاهات واستطاع بفضلها أن يضرب أعوان العدو في كل مكان، بل أصبح في كثير من الأحيان على مقربة من مراكز العدو الحساسة كبسكرة والأغواط. وقد استقطب تحرير الشريف لورقلة وتقرت إليه أنظار رموز المقاومة الآخرين كابن شهرة وابن عبد الله وسي الزبير الذين انضموا إليه يناصرون عمله ويقفون إلى جانبه. ولكن تحول الظروف بشكل غير مناسب ساعد على ضياع القاعدتين وأرغم الشريف على التراجع ودخل مرحلة الهزيمة والانكسار.

### 3 - مرحلة التراجع والهزيمة: 1872-1874

بعد النجاح الذي حققه الجنرال Delacroix في احتلال ورقلة وتقرت من جديد، قرر في 5 جانفي 1872 متابعة الثوار في أقصى الجنوب مستغلا خبرة قائده روس بشؤون الصحراء الذي كلفه بالمهمة وزوده بما يحتاج من عتاد وجند بلغ حوالي 443 جنديا مقسمين إلى أربع مجموعات يقودها ضباط فرنسيون وهي مجموعة أولاد عبد التور وأولاد ثابت من سطيف ومجموعة سعيد عتبة ومجموعة أولاد زكري ومجموعة مخازنية علي باي وأتباع بيت بوعكاز. وفي 7 جانفي انطلقت هذه القوات من الرويسات تبحث عن الشريف وأتباعه وفي 9 من نفس الشهر وبالقرب من نامزقيدة وقع الالتحام بين الطرفين خسر فيه الشريف 5 قتلى من بينهم ابن أخ الناصر بن شهرة وضيع فيه معظم زملائه التي استولى عليها العدو بما فيها من جمال وما تحمله من هودج وزرابي وحبوب وخيام، وأغنام وأسرى منهم سي عبد العزيز بن محمد قاضي ساحل قبلي السابق وسي محمد بن حمودة قاضي بحانة السابق وهما من المقرانيين الذين اتصلوا بالشريف منذ أكتوبر 1870 بعد فرارهم من الشمال.

وإثر هذه الهزيمة واصل الثوار طريقهم باتجاه الجنوب الغربي وحيّموا في قورد عيش منذ 10 جانفي، أما الشعانية فقد غادروا الشريف واتجهوا إلى عين الطيبة. وفي قورد عيش وقع الشقاق في صفوف الثوار على حد تعبير رين وتفرق شملهم. أما سي الزبير فقد اتجه إلى عين صالح رفقة البعض من أولاد سيد الشيخ. وأما بوشوشة فقد حيم إلى الجنوب من المخادمة باتجاه عين صالح وقد فقد كل شيء وهو حائف من المخادمة وأولاد مقران من أن يسلموه

إلى فرنسا. أما ابن شهرة فقد قاد المقرانيين واتجه بهم إلى الحدود التونسية ودخلوا هناك كلاجئين. ولكن وقبل أن يتجه كل طرف إلى حال سبيله وفي 11 جانفي وقعت محاولة اغتيال تعرض لها بوشوشة من طرف مولاي العربي أحمد أشرف ورقلة.

حسب رين بقيت هذه الحادثة غامضة مدة طويلة ومع ذلك فثمة روايتان حول سبب المحاولة، فأما الرواية الأولى فنقول أن الهدف كان هو اختطاف فاطمة بنت جلول زوجة بوشوشة، وأما الرواية الثانية فتتهم ابن ناصر بن شهرة بأنه مدير العملية طمعا في مبلغ مالي كان عند بوشوشة ويقدر بحوالي 80000 فرنك. غير أن هذا المبلغ كما يقول رين كان بحوزة ابن شهرة منذ 9 جانفي يوم المعركة، وعليه يضيف رين فليس لابن شهرة ولا للمقرانيين أي مصلحة في قتل الشريف.

ومهما كانت أسباب ودوافع الحادثة فإن رين قد ساقها ليبين ما آلت إليه حركة بوشوشة من انقسام وانشقاق وتزعزع الصف في نظره، وأن الشريف لم يكن يقود حركة من مناضلين وجنود مخلصين له مؤمنين بما يدعوههم إليه، مع أن المحاولة في الحقيقة لا يستبعد أن تكون من فعل الفرنسيين واعوانهم.

لقد افترق شمل الثوار بعد معركة 9 جانفي 1872 واتجه كل طرف إلى حال سبيله يقرر مصيره بيده، فالمقرانيون دخلوا تونس يقودهم ابن شهرة، ما عدا بومزراق الذي وقع أسيرا في يد الفرنسيين بعدما ضل الطريق، أما شعانية بوروية وبرزقة والشعانية المواضي والمخادمة فقد أخضعتهم فرنسا خلال هذه السنة لسيطرتها.

أما زعيم الثورة الشريف بوشوشة فقد التقط الشعلة التي أرادها أن تبقى حية ولا تموت أبدا، حيث اتجه إلى عين صالح قاعدته المفضلة والمكان الذي عرف ميلاد حركته ومنها إلى كرزاز محاولا تحديد الزمالة ومواصلة النضال والكفاح ضد العدو وأعوانه، ومنها إلى توات من أجل نفس الغرض.

وفي جويلية 1873 ظهر ما بين الأغواط والبيض ومن هناك إلى المنيعه باحثا عن الأنصار والدعم المادي لمواجهة العدو وفي نيته اقتحام ورقلة من جديد وتحريرها، ولكن بوشوشة اصطدم بالسعيد بن إدريس خليفة وأخ آغا ورقلة الجديد محمد بن الحاج بن إدريس الذي نصبه الفرنسيون عليها في 2 فبراير 1872 وذلك في إطار التغييرات الجديدة التي أدخلتها

الإدارة الفرنسية على المنطقة، فقد وضعت تقررت تحت إدارتها العسكرية مباشرة وعينت علي باي في باتنة. أما ورقلة فقد عينت عليها محمد بن الحاج بن إدريس لأنه لا ينتمي لأي عائلة من العائلات المتفاسمة للنفوذ في الصحراء وإن التناحر بينها هو الذي تسبب في تسليم ورقلة وتقرت إلى بوشوشة حسب رأي زين، لذلك فهو يرى أن ابن إدريس سيكون ولاؤه للفرنسيين أكبر وأخلص من غيره سيما وأنه كان يحمل الجنسية الفرنسية.

وبالفعل قد أتت هذه السياسة الجديدة ثمارها، فقد أصبح همّ خليفة ورقلة الجديد وأخوه هو القضاء على بوشوشة وحركته، فبعد الصدام الذي وقع في شهر جويلية بين بوشوشة والسعيد بن إدريس وفقد فيه الشريف معظم زملائه الجديدة وزوجته فاطمة بنت جلول التي بصر زين على أنها لم تكن راغبة على الإطلاق في الزواج من الشريف وإنما أرغمت على ذلك وأنها كانت تحقره لأنه ليس من مستواها ولا من دمها الشريف، هكذا يصور زين بوشوشة على أنه مرفوض حتى من أقرب الناس إليه.

بعد نكبة بوشوشة في حاسي الناقة أمام السعيد بن إدريس رجع إلى عين صالح وإلى الجنوب الشرقي منها استقر في مادردقانت مدة من الزمن. وفجأة في 13 فبراير 1874 يظهر في مطماط شرق الحجيرة مصمما على مواصلة الكفاح كعادته دون ملل ولا كلل وقد استولى على 250 جمل في حركته الخاطفة هاته، كلف إثرها الجنرال ليبير Liebert السعيد بن إدريس بملاحقة الشريف ولكنه فشل في ذلك بعد محاولة 19 فبراير في حاسي بوكولة.

وأمام الخطر الجديد الذي أصبح يشككه الشريف على العدو وأعوانه في المنطقة، قرر آغا ورقلة محمد بن إدريس ألا يبقى مكتوف اليدين أمام ضربات الشريف، فكلف أخاه السعيد بن إدريس بمهمة الملاحقة ووضع بين يديه 300 خيال ومهري وانطلق بها يوم 4 مارس 1874 يبحث عن بوشوشة. وفي 31 من نفس الشهر وفي الميلاك جنوب عين صالح ألقى بعج بن قدور بن مبارك قائد السعيد عتبة وأحد رجال السعيد بن إدريس القبض على الشريف الذي اقتيد مع مجموعة من المعتقلين إلى ورقلة<sup>9</sup>. فاستحق بهذه العملية الناجحة الآغا محمد بن إدريس وأخوه السعيد وسام الشرف والنياشين التي خلعتها فرنسا عليهما وعلى أبطال العملية.

ومن ورقلة أقتيد الشريف إلى العاصمة لعرضه على المجلس الحربي باعتبار أن ورقلة أصبحت تابعة لمقاطعة الجزائر العسكرية ابتداء من 22 ماي 1870 ونظرا لتورطه في أحداث تفرقت أيضا فإنه أحيل على مجلس قسنطينة الحربي أين تمت محاكمته كمجرم حرب في نظر الفرنسيين ولمدة 15 يوما، وبعد ثلاثة أشهر من الحكم عليه بالإعدام نُفذ فيه هذا الحكم بمعسكر الزيتون قرب قسنطينة يوم 29 جوان 1875 أين تقدم إلى الموت بكل صبر وشجاعة<sup>10</sup>.

ولكن رين لا يفوته أن يسدل الستار عن ثورة بوشوشة دون أن يشوه حقائق آخر لحظة من لحظاتها، وذلك باقتطاف بعض الكلمات حسب زعمه أدلى بها بوشوشة أثناء المحاكمة التي دامت 15 يوما.

ومن هذه المقتطفات أن بوشوشة صرح بأنه كان مجرد كلب (سلوقي) استعمله الصياد لالتقاط الفريسة، وأن هذا الصياد هو الذي أقنعه أن فرنسا انتهت وأنها لا تساوي شيئا. كما صرح أيضا بأنه لا يخاف الموت وهو يعرف مصيره المحتوم الذي يستحقه من طرف الفرنسيين، لأن الذين خدمهم هم الذين سرقوه وخانوه وتكروا له وحاولوا اغتياله ولم يبق له إلا الموت.

هكذا يريد رين أن ينفي عن بوشوشة أي دور بطولي وصفة الزعامة للثورة وقيادتها، فهو في رأيه كان مدفوعا من جهة خفية لم يحددها، وهي التي أقنعه بأن فرنسا قد انتهت الأمر الذي دفعه إلى المغامرة والتهور، ولا غرابة في أن يحتتم رين حياة بوشوشة بهذا التقزيم وقد استغلها بحادثة السرقة فقد جاءت المقدمة مطابقة للخاتمة. ولكن الحقيقة التاريخية وسباق الأحداث التي أوردها رين نفسه تبين أن حركة بوشوشة كانت ثورة شريفة كباقي ثورات القرن 19 انطلقت من عمق الصحراء تقاوم العدو الفرنسي وأعوانه الذين يتحملون القسط الأوفر في القضاء على الشريف وحركته.

لعل خطورة ثورة بوشوشة على العدو وتحريره لورقلة وتفرقت ومتليي والمنبعة لمدة طويلة، وقيامه في سنة عرفت غلبانا يكاد يكون استثنائيا هي سنة 1871، والتفاف رموز المقاومة حوله كالشريف ابن عبد الله وابن ناصر ابن شهرة وسي الزبير، كل ذلك هو الذي دفع الأعلام الفرنسية إلى تشويه ثورة بوشوشة بروح استعمارية وتقزيمها واتهام صاحبها

بمختلف النعوت كالمشوش والسارق وقاطع الطريق والمنهور. وتبقى مع الأسف وفي غياب البداية، الرواية الفرنسية هي مصدرنا وعمدتنا في التأريخ لرموزنا وأبطالنا.

- 1- Louis Rinn, Histoire de l'insurrection de 1871 en Alger, Alger, 1891.
- 2- Le C. Le CHATELIER, " Les Medaganat", Revue Africaine, n° 30, 1886 , pp39-40.
- 3- ولكن حسب E. Mangin فإن عمر بوشوشة في سنة 1870 تاريخ محاولة اقتحامه الأغواط كان 23 سنة وهذا ما ذكره في أخته الإفريقية ص 134 العدد 39 لسنة 1895، وهذا ما يعني أنه من مواليد 1847. وإذا ما سلمنا هذا الرأي فإن بوشوشة الذي أخرج من السجن بوقت قصير عام 1863 وشرع في التحضير للمقاومة حسب لوي رين، كان عمره 16 عاما . وهو أمر مستبعد وحتى عنصر الشرف (الشريف) الذي اعتمد بوشوشة غير كاف أمام سن كهذا، وبما جعلنا نستبعد رأي Mangin أيضا أنه يذكر وفي نفس العدد ص: 138 أن إلقاء القبض على بوشوشة كان في مارس 1873 وهو غير صحيح لأن المصادر الأقرب إلى الحدث (رين و لوشاتولييه) تذكر مارس 1874. ويقول أيضا أن بوشوشة اقتيد بعد إلقاء القبض عليه يوم 4 ماي 1873 إلى الأغواط وفي 6 ماي إلى العاصمة وهو غير صحيح أيضا حسب رين. بمعنى أن هذه التواريخ الخاطئة التي قدمها Mangin عن هامة بوشوشة بمعنا لا تطعن إلى الرأي الذي قدمه بخصوص ميلاد بوشوشة الذي أشار إليه إشارة عابرة فقط خلال تاريخه للأغواط.
- 4- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص: 298 - م. د. ك الجزائر 1992.
- 5- لوي رين، المصدر السابق، ص: 140.
- 6- لوي رين، المصدر السابق، ص: 493.
- 7- لوي رين، المصدر السابق، ص: 618.
- 8- A.COYNE . 'Le Mzab', Revuc Africaine, n° 23, 1879, PP- 205-206
- 9- لوشاتولييه، المذكرات، ص 50-51.
- 10- بوعزيز يحيى، ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، الجزائر: منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1996، ص 226.